تركيا والغرب: خطوط التصدع في تحالف مضطرب

Turkey and the West: Fault Lines in a Troubled Alliance

المؤلف: كمال كيريشجي
Kemal Kirişçi

عرض علي بالجي - Reviewed by Ali Balcı

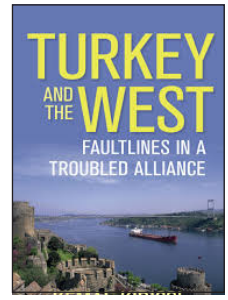

تشهد العلاقات التركية الأمريكية حاليًّا أشدّ أزماتها عمقًا. فحتى لمّا فرضت الولايات المتحدة على تركيا حظرًا على الأسلحة عام 1975 كان لأنقرة حلفاء مساندون لها في واشنطن، إذ كان رئيس الولايات المتحدة ووزير خارجيتها حينها يعارضان قرار الحظر، وبذلا قصارى جهدهما لإقناع مجلس الشيوخ والكونغرس بتغيير القرار. اختُبرت العلاقات مرة أخرى بعد أربعة عقود؛ أي في عام 2015، ولكن هذه المرة لم يكن لأنقرة أيّ أصدقاء في واشنطن. بدءًا من 2013 استمرت الأزمة طويلًا نسبيًّا، مقارنة بما عداها، كما أنها تطورت تدريجيًّا إلى الأسوء، حتى صار من المحتمل انقطاع العلاقات. ما الذي يجعل هذه الأزمة عميقة ومستمرة وتدريجية في تدهورها بهذا الشكل؟ يستحق لغزٌ كهذا أن يُدرَس دراسة دقيقة معمّقة. يأتي كتاب كمال كيريشجي الذي يهدف إلى شرح الأزمة الأخيرة بين تركيا والنظام الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة إسهامًا ثريًّا في الوقت المناسب.

يبدأ الكتاب بشرح ما يصفه بـ"عدم الاستقرار المتزايد" الذي يشهده التحالف العابر للأطلسي على "عدة جبهات" لمدة طويلة. نقلًا عن جي. جون إكينبيري، يُعرّف كريشجي النظام الدولي بقيادة الولايات المتحدة بأنّه "نظامٌ دوليّ ليبراليّ" ويستفيض بقوله: إنّ هذا النظام يُواجه "تحديات من الداخل، حيث إن كلًّا من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واجه صعوبات اقتصادية؛ وكذلك تحديات من القوى الخارجية، وبخاصة من الصين وروسيا، هاتان الدولتان اللّتان تسعيان إلى نظام دولي بديل" (ص4). ووفقًا لكيريشجي، فإنّ هذه الديناميكية البنيويّة للنظام الدولي أدّت دورًا مهمًّا في التحولات الأخيرة في السياسة التركية الداخلية، حيث بدأت الديمقراطية التركية في التراجع/ الانحسار، كما بدأت ديناميكيتها الاقتصادية في التلاشي؛ وكذلك في السياسة التركية الخارجية، كما لُوحظ ذلك في تقاربها الأمني مع روسيا (ص4). على الرغم من أن الأزمة البنيوية للنظام الليبرالي الدولي جعلت أزمة تركيا مع الولايات المتحدة ممكنة، إلا أن هذه الأزمة ذاتها هي مصدر إمكانية إعادة العلاقات التركية الأمريكية، ويعتقد كريشجي أن "ضمان التعاون مع تركيا ودعمها سوف يكون حاسما" لمواجهة "حزم روسيا المتنامي"، وكذلك في إدارة حلّ القضايا الأمنية في الشرق الأوسط (ص7، 14، 22).

يهدف الكتاب إلى شرح العوامل التي تسبب "تدهور علاقات تركيا مع حلفائها التقليديين" (ص14)، فعلى عكس الأزمات السابقة، شكّكت تركيا (بعمق) في الآونة الحالية في التزاماتها الأمنية مع

الغـرب، وأبرمت اتفاقات عسـكرية عاليـة التقنية مع روسيا. على سبيل المثال، وقّعت تركيا اتفاقًا مع موسكو لتزويـد أنقرة ببطاريات صواريـخ أرض جو من طراز إس-400، وبدأت تركيا العمل مع روسـيا في أعقاب الأزمة السـورية، والتي تتنافس فيها الولايات المتحدة وروسـيا على النفوذ. لكن السـؤال الجدير بالطرح هو: لماذا تنظر تركيا، بصفتها عضوًا في الناتو، إلى روسيا على أنها مصدر للاسـتقرار والحماية؟ والجواب يسـيرٌ، وهو أنّ عزوف/ انحـراف تركيا عن النظـام الليبرالي الدولي هو نتيجة تغيّر في "الهوية". يجادل كريشـجي بأن حزب العدالة والتنميّة تحوّلَ بعد انتخابات 2011؛ فمن جهة فَقَدَ مناصرو السياسات الليبرالية البارزون مواقفهم في الحـزب، وفي الحكومات الوطنية (ص15)؛ ومن جهةٍ أخـرى، اسـتفادت النخبـة المتبقيـة داخـل الحزب من فكرة الأمة؛ أيّ المجتمع المسلم الأوسع، وعليه تأزمت هوية تركيا مع الغـرب (ص15-16). على الرغم من أن كريشـجي يقـول عن الحرب في سـوريا إنّهـا "نقطة تحوّل رئيسـة" في علاقـات تركيا المتدهـورة مع الغرب (ص72)، إلا أنه يشير إلى أن أردوغان هو الذي جعل تركيا تتخلى عـن توجهها الغربي لمصلحة محور الشرق. ومن ثَمّ لم تكن القضايا الأمنية هي التي دفعت إلى مزيد مـن الانفصال بـين تركيا والغرب، وإنـما عزوف تركيا عن "القيم التي طالما شـكّلت النظـام الليبرالي الدولي" (ص122). وطالمـا بقيت العناصر الفاعلـة التي تنأى بتركيـا عـن القيـم الغربيـة وتقمـع "شرائـح المجتمـع العلمانية والغربية التوجه" في السـلطة، فلا يوجد "أمل في حدوث أي تحسّن في المستقبل القريب" (ص121-122 ، وانظر أيضًا ص149).

ويشير كريشـجي إلى إمكانية عودة تركيا إلى النظام الليبـرالي الدولي؛ لأن "أردوغان يمتلك مسـيرةً طويلةً من البراغماتيـة، وقدرة واضحة على أخـذ المنعطفات" (ص187). ومع ذلك، لا يبدو هذا السيناريو مرجّحًا (ص188)؛ لأنـه يبـدو لكريشـجي أنّ التوقـع بتخلي أردوغـان عن "أفضلياتـه الأيديولوجيـة" (ص191) غير واقعي إلى حدّ ما (ص188)؛ لذلك فإن السيناريو الأكثر احتمالًا هو "حالة من التوتر المستمرّ" مع الغرب والنظـام الليبـرالي الـدولي. والمخـرج الوحيـد من هذا التوتـر هـو ظهور "حركـة إصلاحيـة" تميـل إلى توثيق العلاقـات مع الاتحـاد الأوروبي داخل حـزب العدالة والتنميـة (ص192)؛ لأن احتماليـة صعود أي قائد إلى السـلطة مـن أيّ من الأحزاب المعارضـة في تركيا يبدو غير ممكنـة. وبالرغم من ذلك هناك رؤيـة بديلة لقراءة كتـاب كريشـجي. إن إحجـام الاتحـاد الأوروبي عـن الاحتضـان الحقيقي لتركيا وإخفـاق الولايات المتحدة في التخفيـف مـن مخـاوف تركيـا الأمنية همـا ديناميتان مهمّتـان تدفعـان بتركيا بعيدًا عـن الغرب (ص193-195)؛ وإذا كان هـذا هـو الحـال، فإنّـه يمكـن أن يـؤدّي التغيـير الإيجابي في سياسـات الاتحـاد الأوروبي والولايـات المتحـدة تجاه تركيا دورًا حاسـمًا في إصلاح العلاقـات. إنّ مثل هذه القـراءة البديلة قد تترك القرّاء في حيرة عمّا إذا كان انحراف أردوغان الأخير عن القيم الغربية هو نتيجة لحقائق/ مقتضيات النظام الدولي! إن كريشـجي واضـح للغاية في حجتـه، بالرغم من كل ما سـبق، في أن مصـدر هـذا الانحـراف هـو الجانب غير الديمقراطي لأردوغان.

عـلى الرغـم مـن ثـراء الكتـاب في دراسـة تاريـخ العلاقات التركية الأمريكية الفعليّة مع التركيز بشـكل خـاص عـلى آخـر التطـورات، إلا أن الكتـاب يعـاني مشـكلة الاختزاليـة، وعـلى وجـه التحديـد الاختزال باسـتخدام برهان الخُلْف (وهو برهنة أساسـها إثبات صحة المطلوب بإبطال نقيضه أو فساد المطلوب بإثبات نقيضـه)، أيّ اختزال كل مسـبّبات أزمـة العلاقات إلى

شخص أردوغان. يحكم كريشجي على ممارسات تركيا في كل من السياسة الداخلية والعلاقات الخارجية من خلالً معايير النظام الليبرالي الدولي (يُنظَر على سبيل المثال ص12)، وبهذا، فإنه يفترض ضمنًا أن مؤسسات هذا النظام، مثل فريدوم هاوس/ بيت الحرية، تقيس التطورات في تركيا بموضوعية وحياديّة، إلا أنّ هذه ليست الحال دائمًا، فعلى سبيل المثال، على الرغم من أن دورة قضايا المحاكم بين عامي 2009 و2011 استندت جزئيًا إلى أدلة ملفَّقة، ووضعت مئات من الضباط العسكريين والصحفيين والسياسيين والأكاديميين في السجن على إثرها- فإن الكتاب قد غضّ الطرف عن حقيقة أن نفس المؤسسات الغربية وصفت هذه العملية القضائية بوصفها علامة على التحسن الديمقراطي في تركيا (صفحة130). تكشف هاتان الصورتان المختلفتان عن نقطة حرجة للغاية تخصّ المنطق الذي يجادل به كيريشجي؛ علاوةً على أنّ الكتاب يطرح بشكل مستمر سؤالًا مثيرًا للاهتمام لم يهتمّ به أو يعرّج عليه كريشجي، وهو إذا ما كانت كل هذه الأحكام الصادرة عن المؤسسات الغربية صحيحة بشكل موضوعي، أم أنها نتيجة أزمة تركيا مع النظام الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة؟

هذا السؤال مهمّ؛ لأنه يكشف حقيقة أن كريشجي يُلقي كلّ اللّوم على صانع القرار الفردي (أردوغان) في أزمة تركيا المتزايدة مع النظام الدولي بقيادة الولايات المتحدة، في حين همّش الديناميات النظامية (المتعلقة بكيفية عمل النظام الدولي). وعلى الرغم من أن الكتاب يبدأ بالتركيز على أهمية المتغيّر النظامي في شرح سلوك الفاعلين السياسيين إلا أنّه يوحي في تحليله النهائي بأنّ القائد السياسي هو مصدر كلّ شيء. وبالرغم من هذا، فإن الكتاب مصدرٌ غنيّ جدًّا لطلاب السياسة الخارجية التركية؛ لأنه يقدّم تحليلًا مفصّلًا للغاية لأزمة تركيا الأخيرة مع الغرب، كما أنه قراءة جيدة لصانعي السياسة الراغبين في فهم أسباب الأزمة والحلول الممكنة لها.